من كتب الشرق والغرب

RENOUVEAU DE LA LITTÉRATURE COMPAREE

ETIEMBLE

نهضة الأدب المقارن*

حين انتوى مونتانى Montaigne أن يرحل إلى إيطاليا ، لم يكن عليه إلا أن يعد كيسا مليئا ، وحصانا وخادما . أما عن جواز السفر فلا تسل . وقبل حرب ١٩١٤ كان يستطيع من يريد رؤية الدنيا أن يراها دون عائق يعوق حريته اللهم إلا ما كانت تفرض عليه تركيا وروسيا من قيود . أما فى عام ١٩٣٦ ، فما أكثر الأختام والمرور بالجمارك التى تفرض على من يريد السفر من باريس إلى هولندا . وعندما كنت أقيم بشيكاجو عام ١٩٤٠ ، أردت أن أمضى بضع أسابيع فى المكسيك ، فكان على أن أعد فى حقائبى حقيبة خاصة للوثائق اللازمة لتلك الحملة . ولقد وجد المتصنعون snobs فى هذا فائدة لهم ومسرة : فهم يعددون تراخيص السفر إلى البلاد الأجنبية كما لو كانوا يحصون أجدادهم من الأشراف ، ويصطنعون الكثير من ذلك العبث الذى كان يدفعهم إلى جمع بطاقات الفنادق . أما الآخرون، أولئك الذين يريدون أن يحيوا حياة الرجال ، حياة بسيطة ومليئة أيضا ، فما برحوا يسائلون أنفسهم لم تكون الصلات اليوم من وطن إلى آخر أكثر صعوبة مما كانت فى زمن الحريات .

ولا يصح الادعاء بأن كثرة تلك التراخيص والأوراق قد منع اللصوص الدوليين ، أو الجواسيس الأعداء من تأديتهم مهمتهم فى سلام . فان أى رجل من رجال الشرطة ، وأى عضو من أعضاء الأحزاب الثورية يعرف كيف يصنع أوراقا مزيفة . وقد أثبت التاريخ الحديث لجماعات مقاومة الاضطهاد النازى ، أن رجالا أقوياء قد استطاعوا أن يجوسوا خلال أوربا ساخرين من رجال الجستابو . ولم يكن عبثا تقسيم الأرض وتفريقها بهذه الصرامة وخاصة فى عهد الاستبداد . فما كان تقطير الأجانب إلا لوقف الآراء التى سرعان ما تنتشر بانتشار الكلمات السيارة mots-voyageurs (ولنذكر تاريخ الكلمة الصينية تشا tch'a التى صارت فى الروسية تشاى وفى العربية شاى ، وفى الفرنسية ، تيه thé الخ) . فالحواجز الجمركية تستخدم إذن فى وقف الكتب والمجلات والأفكار . وقد ساعد تشويش الأمواج اللاسلكية (أو منع استخدام أجهزة الراديو التى تستطيع التقاط المحطات الضعيفة والبعيدة) على جعل حدود الدول أسوار سجن بدلا من أن توحد بين الشعوب .

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

فليست مصادفة إذن أن تختفى فى سنة ١٩٤٠ مجلة الأدب المقارن *Revue de Litt. comparée* التى أنشئت عام ١٩٢٠ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى لتؤكد حاجات العقل وضرورات الاتحاد الثقافى ضد ما كان يسود الناس من بغض . «فما هو الأدب المقارن إذا لم يكن دراسة التبادل الحر ؟ فلو قد ظهرت هذه المجلة أثناء الاحتلال ، لقضت على نفسها بأن تقطع أوصالها ، وألا تفحص من المؤثرات إلا ما يسير فى اتجاه واحد ، وألا تدرس من الآراء إلا ذات الاتجاه الواحد . ولو قد فعلت ذلك لفرضت على نفسها أن تصمت عما يحدث فى انجلترا وفى أمريكا. كلا ! لم يكن هناك مكان لهذا النوع من الدراسة ، لا مكان لدراستنا فيما دعى « النظام الجديد » ، لا مكان لها فى نظام من الأوتوقراطية الفكرية حيث كان المرء يلقى فى كل طرق المدينة اللافتة « ممنوع » Verboten التى تحدد ما يسمح للمرء برؤيته . وما أكثر ما كرر المعهد الألمانى بباريس دعواته لى ، ولكن عبثا ! كانت ترسل لى باستمرار فى السوربون الكراسات الفرنسية الألمانية *Cahiers Franco allemands* ، والكتيبات التى كانت تصدرها جماعة التعاون Collaboration وعديد من المطبوعات الأخرى الآتية رأسا من برلين . لقد صمتنا» (١) وليست مصادفة أيضا أن يكون مارسيل باتايون ، وجان مارى كاريه J. M. Carré — وهما المديران الحاليان للمجلة واللذان أبانا عن حبهما للدراسات البشرية الأجنبية humanismes étrangers أحدهما بكتاباته عن جوته Goethe والآخر ببحوثه عن أرزمس Erasme فى أسبانيا — أثناء فترة احتجاب المعرفة ، فى قمة النضال الجامعى .

أسفاً ! إن أول كراسة من المجلة هى رثاء لبول هازارد P. Hazard (الذى مات قبل أن يرى عودة المجلة التى أسسها وأدارها طيلة عشرين عاما . مات قبل أن يقرأ التجارب الأخيرة لكتابه : « الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر » *La pensée européenne au XVIIIe Siècle*) وتقرأ فيها آخر دراسة أعدها هذا الأستاذ العالم ، وهى مقدمة لكتاب إرزمس « ثناء على الجنون » *Eloge de la folie* وفيها يمتدح روح النقد . وإنه لأمر « رائع ومنقذ » فى نفس الوقت أن تظهر روح النقد فى ساعات التاريخ التى تكون فيها الآراء التقليدية قد استنفدت أغراضها . وإنه لمن الخير أن تعود مجلة الأدب المقارن إلى الحياة لتحيا فى إرزمس « هادم الآراء الزائفة » ، ذلك لأننا اليوم فى حاجة إلى اثنين أو ثلاثة من طراز إرزمس .

وقد ظهرت أربع من تلك الكراسات : ديدرو وهولانده ، برانجيه فى ألمانيا Béranger en Allemagne ؛ جوته وفاليرى Goethe et Valry ؛ كامونس فى ألمانيا Camoëns en Allemagne ؛ بوكاس والقصة الفرنسية فى عهد النهضة ؛ ريلكه وفان جوج Rilke et Van Gogh ؛ رسكين وبروست Ruskin et Proust ؛ فنكلمان وأندريه شنييه Winckelman et Chénier كوستيس بالاماس وأوربا Costis Palamas et l'Europe ؛ مونتانى عند أصدقائه الأنجلوسكسون Montaigne chez ses amis anglo-saxons ؛ جوته والأدب فى العالم Goethe und die

---

(١) هذا ما كتبه كاريه J. M. Carré فى مقدمته للعدد الأول من المجموعة الجديدة .

Weltliteratur ؛ مانزونى فى فرنسا Manzoni en France ؛ بنـوا بيكار أنموذج شيللر ؛ بوشكين المدافع عن مدام دى ستال . وماذا عن الشرق ؟ هناك كتاب للانسة دفرنوا Dufrénoy عن الشرق الأسطورى فى فرنسا (وهناك جزء آخر فى طور الاعداد وسيشمل المراجع الخاصة une bibliographie) ؛ وهناك كتـاب عن بارس والشرق *Barrès et l'Orient* ؛ وهنـاك كتاب عن « السعدى فى فرنسـا » *Saadi en France* للكاتب بنشنب Bencheneb (١) .

رسكن وبروست ، جـوته وفالـرى . السعدى وفرنسا . كل شئ يتوقف على هـذا الحـرف : « و » ؛ فحـرف العطف التواضع هـذا ، لا يصل بين كلمتـين من الجمـلة ، ولا بـين فعـلين ولا بين جملتين ، وإنما بين رجلين ، بين عملين ، بين نوعين ، بين بلدين ، بين عالمين .

كثيراً ما أخـذت على الأدب المقـارن تحفظـات حقة : من المؤكد أن هـذه الدراسة لا تلغى المتعة الأدبية وأنها لا يمكن (ولا هى تدعى ذلك) أن تقـوم مقـام الدراسـة التحليلية للأعمـال الأدبية . واليوم ، وقـد أخذت الخـلافات الوطنية يساء استخدامها فتصبح قطيعة أدبيـة ، نخطىء إذا قللنا من قيمة الدراسات فى الأدب المقـارن ومن المثل الذى تضربه . فهـذه الدراسات تدلنا على أن الصـلات بين فرنسا وبين الثقافة العربية لم تكن قط أكثر منها يوم كان الاسلام والمسيحية يتصارعان على السيادة فى البحر المتوسط ، وأن الصراع بين فرنسا والأسرة المالكة النمساوية لم تمنع كتابنا الكلاسيين من حبهم للأدب الأسبانى ، وأن الجزويت

---

(١) يدهشنى ألا يحصى حتى الآن من بين تلك المؤلفات ، كتاب بريفو Briffault عن « التروبادور والمشاعر الأسطورية » . فهل سننتظر حتى تطبع فى كتاب الرسالة التى قدمها حديثاً الدكتور محمد عبد الحميد عنبر إلى السوربون وعنوانهـا : « مشكلة التأثير العربى فى شعراء التروبادور الأول » *Le problème de l'influence arabe sur les premiers troubadours* . وكلمـات الأستاذ عنبر الأخيرة ، تؤيد ما قاله ج . م . كاريه Jean Marie Carré فهى تدمغ التعصب الشائع فى أعمال الأدب المقارن . وبهذه المناسبة أقول إن رسالة الأستاذ عنبر تدعونى إلى أن أعـدل عبارة من المقـال الذى سبق أن نشرته هنـا عن بريفو Briffault : (فيما عدا الحب الجسدى ، كشف العرب لشعراء التروبادور بعض قواعـد الحب الفاضل) . وهى تؤيد نظرية بريفو فى كتابه : «التروبادور والمشاعر الأسطورية » . ويقول الأستاذ عنبر إنه من العدل أن نقول إن أسبانيا المسلمة فى القرن الحادى عشر كانت السبب فى انبثاق كل هذه الأغنيات فى بروفانس Provence .

نشر حديثا مقالان فى عدد خاص لمجلة « الكاييه دو سود » *Les Caliers du Sud* عن الاسـلام والغرب يثبتان تأثير الشعراء الأندلسيين فى نشأة الشعر فى البروفانس . إن الفكرة صحيحـة إذن . ولـكن ، لـكى لا نغالى فى التأكيد كما فعل مسيو جانروا الذى كان ينكر أى تأثير عربى ، يستحسن أن نذكر أن اللغـة اللاتينية فى العصور الوسطى كانت تستبدل القافية بالوزن المعتاد خاصة فى التراتيل الدينية وأن التروبادور قد استمدوا ميلهم المتجدد لنظام القافية من مصادر عدة .

الذين رحلوا لغزو الصين فى القرن السابع عشر قد كشفوا لأوربا عن حكمة كونفشيوس — رغم إخفاقهم فى حملتهم الدينية — وقد أتاحوا لفولتير موضوع كتابه : « يتيم الصين » *Orphelin de la Chine* . وهذه الدراسات تعلمنا أيضاً أن كل أدب يفرض على نفسه حدوداً وطنية إنما يشوه ويفنى ، وأنه كلما فتحت الحدود العقلية كان نتاج ثقافة ما أعذب وأكثر أصالة . إن ما وهبه مونتانى لشكسبير (١) قد أعاده شكسبير بعد قليل إلى فرنسا . الحقيقة كما كان يقول الحكيم لاو تسى Lao-tseu ، هى حركة ذهاب وحركة إياب . والأدب المقارن يؤيد صحة ذلك .

وإذ كانت دار النشر Guillaume Budé تعد مجموعة من الأدب العربى بنصوصة الأصلية وترجمته الفرنسية ، فى حين تقوم دار الكاتب المصرى والآداب الفرنسية Lettres Françaises بنقل آثار بعض الكتاب الذين يمثلون فرنسا الحديثة (٢) أعظم تمثيل ، فلنرج ولنعمل لأن تكون عودة هذه الصلات دائمة ونهائية . ولا خوف من مضار المؤثرات . لنذكر قول بول فاليرى : «صنع الأسد من خروف مهضوم » .

انيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) بترجمة فلوريو Florio .

(٢) ظهر فى العربية ترجمة : برجسون *Essai sur les données immédiates* ، «سلامبو» لفلوبرت Flaubert, *Salammbo* وذلك فى طبعة : (الآداب الفرنسية ، بيروت) . وظهر أيضاً « الباب الضيق » ، « أوديب — ثيسيوس » لجيد فى طبعة الكاتب المصرى (القاهرة) . . . وقد أعلنت طبعة Budé عن نصوص عربية وترجمة فرنسية لشعر عربى من الجاهلية ، وعدة مختارات أخرى (شعر أندلسى ، شعر أموى ، شعر معاصر) . وأعلنت أيضاً عن طبع المتنبى ، وابن سينا ، وابن خلدون ، والغزالى ، الخ .